الأبعاد الكلية في أعمال ابن عربي
وأهميتها في عصرنا

الطيب شويرف (فرنسا)
ترجمة: خالد مرعوب (فرنسا)

أمام الصعوبات التي علينا مواجهتها اليوم، والتي تبدو في بعض الأحيان مستعصية، من الممكن - وفي بعض الأحيان يكون الأمر أكثر من مرغوب فيه - أن نستلهم من الطريقة التي تمكّنت بها عقول الماضي العظيمة من معالجة وحل الصعوبات التي واجهتها ومعاصريها. ففي الواقع، ما قيمة الحكمة إذا لم تكن صالحّة إلا لزمن واحد وفي مكان واحد؟

ومع ذلك، فإن الاستلهام لا يعني تكرار الصيغ الموروثة من الماضي دون فهمها حقًّا، وخاصة دون إدراك مدى أهميتها الباطنة. وفي هذا الصدد، فإن أعمال الصوفي الأندلسي العظيم ابن عربي (ت 1240 م) مهمة جدا. فهو من أكبر الناطقين بالحكمة في الإسلام وكثيرا ما لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفية "بالشيخ الأكبر". ومن بين أعماله العظيمة - حيث يُنسب إليه أكثر من أربع مائة كتاب - هناك كتابان يجمعان كل الموضوعات التي فصّلها في كتاباته وهما: الفتوحات المكية وفصوص الحكم. ومن البديهي أنه لا يمكن للمرء أن يستنفد في مقالة صغيرة كل الثروات التي قد توفرها مثل هذه الأعمال للإنسان اليوم.

سنحاول بتواضع إثارة ثلاثة موضوعات عزيزة على ابن عربي وتحمل أهمية قصوى فيما يخص الإسلام في عصرنا:

- الفهم العميق للقرآن.
- النظرة الكلية للأديان.
- أوّلية الحب.

1

فيما يتعلق بالقرآن الكريم، يؤكد ابن عربي على الجانب اللانهائي لما تحمله الرسالة القرآنية وتعدّد مستويات تعميق المعاني التي تحتويها:

"...لأن العبد المنوّر البصيرة الذي هو على نور من ربه له في كل تلاوة فهم في تلك الآية لم يكن له ذلك الفهم في التلاوة التي قبلها ولا يكون في التلاوة التي بعدها. وهو الذي أجاب الله دعاءه في قوله

﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾. فمن استوى فهمه في التلاوتين فهو مغبون ، ومن كان له في كل تلاوة فهم فهو رابح مرحوم ، ومن تلا من غير فهم فهو محروم.[1]"

إن القراءة الحرفيّة الخانقة ، التي تُشّكل الملجأ الأخير لبعض الحركات الدينية أمام فراغها الروحي ، هي أصل العديد من الانحرافات الحالية. وذلك رغم أن القول بأن القرآن باعتباره كتابا مقدسا لا يمكن اختزاله في المعنى الحرفي لآياته ، يؤكده حديث يعتبره ابن عربي أساسيًا لكل من يهتم بفهم القرآن: "إِنَّ لِلْقُرْآنِ بَطْناً وَظَهْراً وَحَدّاً وَمَطْلعاً.[2]"

يشير ابن عربي إلى أهمية هذا الحديث في الفتوحات المكية:

" وكان علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، يقول: "إن الوحي قد انقطع بعد رسول الله ، ﷺ ، وما بقي بأيدينا إلا أن يرزق الله عبدا فهما في هذا القرآن." وقد أجمع أصحابنا أهل الكشف على صحة خبر عن النبي ، ﷺ ، أنه قال في آي القرآن إنه ما من آية إلا ولها ظاهر وباطن وحد ومطلع. ولكل مرتبة من هذه المراتب رجال ولكل طائفة من هؤلاء الطوائف قطب وعلى ذلك القطب يدور فلك ذلك الكشف."[3]

ويضيف صاحب الفتوحات أن الشيخ الشكاز بيّن له كيف يشير القرآن إلى الطوائف الأربعة المذكورة في المقطع السابق:

"دخلت على شيخنا أبي مُحَّد عبد الله الشكاز من أهل باغة بغرناطة سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق لم أر في طريقه مثله في الاجتهاد. فقال لي: "الرجال أربعة: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[4] وهم رجال الظاهر. و﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[5] وهم رجال الباطن جلساء الحق تعالى ولهم المشورة. ورجال الأعراف وهم رجال الحد ، قال الله تعالى ﴿وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾[6] أهل الشم والتمييز والسراح عن الأوصاف ، فلا صفة لهم. كان منهم أبو يزيد البسطامي. ورجال إذا دعاهم الحق إليه يأتونه رجالا لسرعة الإجابة لا يركبون ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾[7] وهم رجال المطلع."[8]

[1] الفتوحات المكية ، 3، ص 129.

[2] أخرجه ابن حبان في "الصحيح" (75) من حديث ابن مسعود بنحوه.

[3] الفتوحات المكية ، 1 ، 187.

[4] سورة الأحزاب ، الآية 23.

[5] سورة النور ، الآية 37.

[6] سورة الأعراف ، الآية 46.

[7] سورة الحج ، الآية 27.

[8] الفتوحات المكية ، 1 ، 187

فالولاية بالنسبة إلى ابن عربي هي الوصول إلى المعاني الباطنة للقرآن التي تعطيه عمقا وبعدا جديدا ، دون إلغاء المعنى الحرفي. عبّر ابن عربي على هذه النعمة الإلهية بالكلمات التالية:

"فجميع ما نتكلم فيه في مجالسي وتصانيفي إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه. أعطيتُ مفتاح الفهم فيه والإمداد منه وهذا كله حتى لا نخرج عنه فإنه أرفع ما يمنح ولا يعرف قدره إلا من ذاقه وشهد منزلته حالا من نفسه وكلمه به الحق في سره."[1]

ولكن يحذر ابن عربي قارئه من محاولة فهم معاني القرآن الباطنة الروحية من دون أهلية لذلك:

"فاغطس في بحر القرآن العزيز إن كنت واسع النفَس ، وإلا فاقتصر على مطالعة كتب المفسرين لظاهره ، ولا تغطس فتهلك ، فإن بحر القرآن عميق ، ولولا الغاطس ما يقصد منه المواضع القريبة من الساحل ، ما خرج لكم أبداً. فالأنبياء والورثة الحفظة هم الذين يقصدون هذه المواضع رحمةً بالعالم ، وأما الواقفون الذين وصلوا ومسكوا ، ولم يردوا ولا انتفع بهم أحد ، ولا انتفعوا بأحد ، فقصدوا بل قصد بهم ثبج البحر ، فغطسوا الى الأبد لا يخرجون."[2]

من خلال المقطع السابق نفهم أن ابن عربي لا ينكر أهمية التفسير الظاهري ، بل يعتبره علما تمهيديا وضروريا لكل من أراد الاكتشاف الروحي لمعاني الكتاب المنزل التي لا تعد ولا تحصى. ففي هذا الصدد ، يدعو ابن عربي إلى التكامل بين التفسير الظاهري للقرآن وفهم خزائنه الباطنة. ولكنه يلاحظ أن هناك من ينكر وجود تلك الخزائن ولا يقبل طريق الكشف في معاني القرآن الروحية الذي يسميه "طريق الوهب الإلهي":

"اعلم ، أيدنا الله وإياك بروح منه ، أنه ما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته ، العارفين به من طريق الوهب الإلهي ، الذي منحهم أسراره في خلقه ، وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه."[3]

يبين ابن عربي أن هذا الأمر هو سبب استعمال الخطاب الإشاري عند الصوفية فيقول:

"ولما كان الأمر في الوجود الواقع على ما سبق به العلم القديم كما ذكرناه عدل أصحابنا إلى الإشارات كما عدلت مريم عليها السلام من أجل أهل الإفك والإلحاد إلى الإشارة فكلامهم رضي الله عنهم في شرح كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه... فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ولا يقولون في ذلك إنه تفسير وقاية لشرهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق."[4]

---

[1] الفتوحات المكية ، 3، ص 334.

[2] انظر "الرحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن" ، دمشق ، 1989 ، ج 1 ، ص 16.

[3] الفتوحات المكية ، 1، ص 279.

[4] الفتوحات المكية ، 1، ص 279.

كما يرى ابن عربي أن البعد اللانهائي لمعاني القرآن لا تكشف للسالك إلى الله إلا إذا "صفت وزكت" نفسه:

"قال أهل التفسير نقلا نزل جملةً واحدة إلى السماء الدنيا ثم نزل منها على قلب مُحَّد ، ﷺ ، نجوما. وهذا السفر لا يزال أبدا ما دام متلوا بالألسنة سرا وعلانية. وليلة القدر الباقية على الحقيقة ، في حق العبد هي نفسه إذا صفت وزكت."[1]

فقول ابن بأن القرآن ينزل على قلب المؤمن "إذا صفت وزكت" نفسه يذكّرنا بما صرح به شعيب أبو مدين (ت 1198 م): "القُرْآنُ نُزُولٌ وَتَنْزِيلٌ ، فَالنُّزُولُ وَالتَّنْزِيلُ بَاقِيَانِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ."[2]

على حسب الحال الروحي لقارئ القرآن ، يتجلى كلام الله بوجه خاص به. ولذلك قد يحظى القارئ السالك إلى الله بعلم إجمالي أو علم تفصيلي ، وهما العلمان اللذان يشير إليهما ابن عربي عندما يخاطب قارئ القرآن ويقول له "قرآنك" و"فرقانك" في النص التالي:

"وفرِّق بين قرآنك وفرقانك ، وبين توراتك ونورك ، وكتابك وزبورك ، فإن المناجاة تختلف باختلاف المقامات ، وتتباين بتباين الحالات وتتعد بتعدد الأشخاص..."[3]

وختاما لهذا الفصل نذكر مقطعا يبين فيه ابن عربي أن الله يخاطب الإنسان على طريقين. ويعطي صاحب الفتوحات المكية في نفس الوقت نصيحة ثمينة للحصول على بعض أسرار القرآن:

"واعلم يا أخي أن القرآن العزيز خاطبنا الحق به على طريقين: من هو آيات خاطبنا بها يعرّفنا فيها بأحوال غيرنا وما كان منهم ، وإلى أين كان مبدؤنا وإلى أين كانت غايتنا ، وهو الطريق الواحد. ومنه آيات خاطبنا بها لنخاطبه بها ، وهي على قسمين: خاطبنا بآيات لنخاطب بها مخاطبة فعلية مثل قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وغير ذلك ، ومخاطبة لفظية مثل قوله ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وأشباه ذلك كثيرا. وليس القرآن يحوي على غير هذا. ينبغي لك أن تتنبه للتفرقة في كلام الله تعالى إذا قرأته مثل قوله ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا﴾ وقِفْ هنا وبين قوله ﴿آمَنَّا﴾ وقف ثم قل ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا﴾ وقف ثم قل ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ وقف ثم قل ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فإنك إذا قرأته على هذا الحد عرفت أسراره وميزت مواقع الخطاب وحكاية الأحوال والأقوال والأعمال وتناسب الأشياء."[4]

---

[1] كتاب الإسفار عن نتائج الأسفار ، في "رسائل ابن عربي" ، بيروت ، 1997 ، ص 466.

[2] للنص العربي والترجمة إلى الإنجليزية ، انظر: Vincent J.Cornell, *The Way of Abū Madyan*, Islamic Texts Society, 1996, p. 117.

[3] التنزلات الموصلية ، القاهرة ، 1986 ، ص 94.

[4] الرحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن ، ص 15.

من خلال ما سبق نفهم لماذا يصف ابن عربي الكتاب المنزَّل بالعبارة "بحر بلا ساحل"[1] في الفتوحات المكية. وكذلك أنشد في ديوانه:

عجبتُ من بحرٍ بلا ساحلٍ   وساحلٍ ليسَ له بحرُ[2]

2

في زمن لم تعد فيه الديانات قادرة على العيش في معزل عن الديانات الأخرى، كما كان الحال بالضرورة لمدة قرون وإلى غاية زمن غير بعيد. وإذ لم يعد من الممكن لأحد أن يتجاهل وجود ديانات أخرى، لا يستطيع المسلم أن لا يتساءل عن العلاقة التي سيقيمها مع المعتقدين في هذه الديانات. وبالتالي فإن اللقاء بين الأديان هو عنصر لا يمكن تفاديه في عصرنا. فكيف يجب أن نعتبر المعتقدات الأخرى؟

إن البعد الكُلي للقرآن واضح في هذه النقطة لأنه يؤكد أن جميع الشعوب منذ بداية الإنسانية قد تلقوا رسالة إلهية بواسطة الأنبياء والرُسل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ... ﴾[3]

ولكن لا يذكُر الكتاب المنزَّل بصفة مباشرة سبب تعدُد الأديان، فالنبي، كما نعلم، سمح لأديان الكتاب (اليهودية والمسيحية) بالعيش بسلام في أرض الإسلام وبأن تُمارس هذه الديانات في أمان. علاوة على ذلك، أظهر النبي انفتاحاً عظيما فيما يتعلق بالبحث عن الحكمة فقال: "الْكَلِمَةُ ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَها فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا."[4]

لتبرير تنوُّع الأديان وتوضيحه، يركز ابن عربي على اللانهائية الإلهية: فالذي يؤسس طبيعة الدين، والذي هو أيضاً سبب لوجوده، هو النسبة الإلهية التي يعتبرها ذلك الدين أولية ويركز عليها. فتنوع النسب الإلهية لا ينضب حقاً لأن الله هو اللانهائي ويظل في ذاته "الغيب المطلق"[5]. إن التمييز بين الذات والصفات الإلهية أمر حاسم في هذا المجال: فهي الجوانب التي "لا تنضب" للذات الإلية الواحدة الخالية من التمايز، وبالتالي لا يمكن معرفته في حد ذاته. فهناك إذن مستويان وهما أحدية الكثرة

[1] الفتوحات المكية، 2، ص 581.

[2] ديوان ابن عربي، بيروت، ص 33.

[3] سورة المائدة، الآية 48.

[4] رواه ابن ماجه في "السنن" (4169) عن أبي هريرة وحسنه السيوطي في "الجامع الصغير" (6462).

[5] وفي هذا الصدد يقول الأمير عبب القادر: "فكل طائف من الطوائف تحصر الحق تعالى في معتقدها وتنفي أن يكون للحق تعالى تجلٍّ وظهور على خلاف عقيدتها فيه." كتاب المواقف، دمشق، 1966، ص 40.

وأحدية الذات: "فأحدية الله من حيث الأسماء الإلهية التي تطلبنا أحدية الكثرة ، وأحدية الله من حيث الغنى عنا وعن الأسماء أحدية العين[1]."[2]

هذا ما يقول به أيضا عبد الكريم الجيلي (ت.1428) وهو أحد المتابعين البارزين لأعمال ابن عربي:

"اعلم أن ذات الله سبحانه وتعالى عبارة عن نفسه التي هو بها موجود لأنه قائم بنفسه ، وهو الشيء الذي استحق الأسماء والصفات بهويته فيتصور بكل صورة يقتضيها منه كل معنى فيه ، أعني اتصف بكل وصف يطلبه كل نعت واستحق كل اسم دل على مفهوم يقتضيه الكمال. ومن جملة الكمالات عدم الانتهاء ونفي الإدراك ، فحكم بأنها لا تدرك."[3]

لهذا السبب يجب على كل دين أن يركز ، نوعا ما ، على هذا الجانب الإلهي أو ذاك ، لغاية تربوية روحية. وحتى لو لم يتم إنكار الجوانب الإلهية الأخرى ، فإن السمة الإلهية الرئيسية التي يبرزها دين مُعين ستميزه بطريقة ما:

"إنما قلنا اختلفت الشرائع لاختلاف النسب الإلهية لأنه لو كانت النسبة الإلهية لتحليل أمر ما في الشرع كالنسبة لتحريم ذلك الأمر عينه في الشرع لما صح تغيير الحكم ، وقد ثبت تغيير الحكم. ولما صح أيضا قوله تعالى ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وقد صح أن لكل أمة شرعة ومنهاجا جاءها بذلك نبيها ورسولها ، فنسخ وأثبت. فعلمنا بالقطع أن نسبته تعالى فيما شرعه إلى مُحَمَّد ﷺ خلاف نسبته إلى نبي آخر. وإلا لو كانت النسبة واحدة من كل وجه وهي الموجبة للتشريع الخاص لكان الشرع واحدا من كل وجه. فإن قيل: فلِمَ اختلفت النسب الإلهية ؟ قلنا: لاختلاف الأحوال فمَن حاله المرض يدعو يا معافي ويا شافي ، ومَن حاله الجوع يقول يا رزاق ، ومن حاله الغرق يقول يا مغيث فاختلفت النسب لاختلاف الأحوال."[4]

وعبّر الشيخ عن رؤيته العميقة والكلية للإيمان بأبياته المشهورة:

لقد صارَ قلبي قابلاً كلَ صُورةٍ ... فمرعىً لغـزلانٍ ودَيرٌ لرُهبـانِ
وبيتٌ لأوثـانٍ وكعـبةُ طائـفٍ ... وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قــرآن
أدينُ بدينِ الحـبِ أنّى توجّهتْ ... ركائبهُ ، فالحبُّ ديني وإيمَاني[5]

بطبيعة الحال ، لا ينكر ابن عربي أنه من الواجب على المسلم أن يعتقد في الله ما أُمِرَ به على لسان الرسول المصطفى ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم. إنما صار قلبه "قابلا لكل صورة" لأنه أصبح

[1] يستعمل أحيانا ابن عربي العبارة "أحدية العين" أو "أحدية الأحد" بدلا من "الأحدية الذاتية" والمعنى واحد. انظر سعاد الحكيم ، المعجم الصوفي ، بيروت ، 1981 ، رقم 677.

[2] فصوص الحكم ، ج 1 ، ص 105,

[3] الإنسان الكامل ، القاهرة ، 2010 ، ص 21.

[4] الفتوحات المكية ، 1 ، ص 265.

[5] ترجمان الأشواق ، بيروت ، ص 4443.

وارثا للنور المحمدي. فمن قرأ الأبيات السابقة فهم أن رؤية ابن عربي للأديان ناتجة عن تجربته في الحب الإلهي. ولذا يجب علينا الآن إمعان النظر فيما يقوله في أولية الحب.

3

بالنسبة لابن العربي ، الطريق إلى الله هو أساسا طريق محبة. وذلك لأن الله في ذاته رحمة وفقا للحديث القدسي: "إِنَّ ٱللَّهَ تَعالَى لَمَّا خَلَقَ ٱلْخَلْقَ كَتَبَ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي."[1]
على عكس ذلك ، عندما يكون الحب غائبًا عن القلوب ، فإن النظرة الفقهية والمجففة تأخذ المكان بشدة وحماسة. ولطالما شجب ابن عربي انحرافات بعض رجال الفقه ، كما يذكر بنفسه:
"فإياك يا أخي عافاك الله من الظن السوء: أن تظن في أني أذم الفقهاء من أجل أنهم فقهاء أو لنقلهم الفقه. لا ينبغي أن يظن هذا المسلم ، وإن شرف الفقه وعلم الشرع لا خفاء به. ولكن أذم من الفقهاء الصنف الذي تكالب على الدنيا وطلب الفقه للرياء والسمعة وابتغى به نظر الناس ليقال ، ولازم المراء والجدال وأخذ يرد على أبناء الآخرة الذين اتقوا الله فعلّمهم من لدنه علما. فأخذت الفقهاء ، أعني هذا الصنف منهم ، في الرد عليهم في علم لا يعلمونه ولا عرفوا أصوله."[2]
فبالنسبة إلى ابن عربي الطريق الوحيد إلى هو طريق المحبة. ويعبر عن هذه الحقيقة في نص صريح ورد في كتابه "التنزلات الموصلية":
"الحمد لله الذي جعل الهوى حَرَمًا تحجُّ إليه قلوب الأدباء ، وكعبة تطوف بها ألباب الظرفاء..."[3]
وهنا ، علينا بتوضيح نقطة مهمة جدا تتعلق بما يقوله ابن عربي عن الحب: ليست رؤيته للحب نظرية في شيء ، بل هي ناتجة عن تجربته الروحية:
"لقد أعطانا الله منها [أي المحبة] الحظ الوافر ، إلا أنه قوانا عليه. والله إني لأجد من الحب ما لو وضع في ظني على السماء لانفطرت وعلى النجوم لانكدرت وعلى الجبال لسيرت. هذا ذوقي لها ، لكن قواني الحق فيها قوة من ورثته وهو رأس المحبين."[4]
فقوة المحبة تفوق ما يطيقه الإنسان إلا إذا كان من ورثة حبيب الله ، عليه الصلاة والسلام ، وهو "رأس المحبين" كما يقول ابن عربي. نفهم من خلال ذلك أن الطريق إلى الله هو طريق استيلاء محبة الله على القلب ولا يمكن للمؤمن أن يجد الحب الإلهي الحقيقي إلا باتباع الحبيب الأعظم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ...﴾[5]

---

[1]رواه الترمذي في "الجامع" (3611) عن أبي هريرة وصححه السيوطي في "الجامع الصغير" (1788).
[2]مجموعة رسائل ابن عربي ، 1 ، بيروت ، 2000 ، ص 180-181.
[3]التنزلات الموصلية ، القاهرة ، 1986 ، ص 335.
[4]الفتوحات المكية ، 2 ، ص 346.
[5] سورة آل عمران ، الآية 31.

ويميز ابن عربي في الباب 178 من "الفتوحات" الذي يكرسه للحب بين ثلاثة أنواع من الحب: الحب الطبيعي أو العنصري والحب الروحاني والحب الإلهي. يتميز الحب الطبيعي بالأنانية وحب التملك:
"فأما بدء الحب الطبيعي فما هو للإنعام والإحسان ، فإن الطبع لا يعرف ذلك جملة واحدة وإنما يحب الأشياء لذاته خاصة فيريد الاتصال بها والدنو منها ، وهو سارٍ في كل حيوان وهو في الإنسان بما هو حيوان فيحبه الحيوان في نفس الأمر لقوام وجوده.[1]"
أما الحب الروحاني فهو يفترض التغلب على الأنانية ، ويمنح نوعا من الحكمة:
"فاعلم أن الحب الروحاني إذا كان المحب موصوفا بالعقل والعلم كان بعقله حكيما وبحكمته عليما فرتب الأمور ترتيب الحكمة ولم يتعد بها منازلها. فعلم إذا أحب ما هو الحب وما معنى المحِبّ وما حقيقة المحبوب.[2]"
وأخيرا يشير الحب الإلهي إلى الحب الذي يحمله الله تجاه مخلوقاته. فبالنسبة لابن العربي ، يوجد دليل على هذا الحب بشكل خاص في كرم الله الذي يمنح جميع أنواع النعم دون استحقاق مُسبق من قبل المخلوقات وبدون اعتراف منهم بها في المقابل. ومن بين هذه النعم نجد الوجود والوعي والعقل:
"وأما حبه إيانا لنا فإنه عرفنا بمصالحنا دنيا وآخرة ونصب لنا الأدلة على معرفته حتى نعلمه ولا نجهله. ثم إنه رزقنا وأنعم علينا مع تفريطنا بعد علمنا به وإقامة الدليل عندنا على أن كل نعمة نتقلب فيها إنما ذلك من خلقه وراجعة إليه ، وإنه ما أوجدها إلا من أجلنا لننعم بها ونقيم بذلك وتركنا نرأس ونربع. ثم إنه بعد هذا الإحسان التام لم نشكره ، والعقل يقضي بشكر المنعم وقد علمنا أنه لا محسن إلا الله.[3]"
وللمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين الحب والمعرفة المتصلان على الدوام في طريق الوصوا إلى الله نذكر ما يقوله المفكر السويسري تيتوس بركارت في كتابه المهم في التصوف:
"إن معرفة الله حتما تولد الحبّ ، والحب يفترض مسبقا معرفة الكائن المحبوب ، وعلى الأقل بشكل غير مباشر وعبر الانعكاس. إن موضوع الحب الروحاني هو الجمال الإلهي ، وهو جانب من جوانب اللانهائية. بهذا المحبوب تصبح الرغبة صافية... فمن خلال موضوعه الذي هو الجمال ، يتطابق الحب ضمنيا مع المعرفة."[4]
ويشير ابن عربي إلى أن حب الله للناس ورد بكثرة في القرآن ، كما يبين أوليته في الكتاب المنزل:
"وقد وردت المحبة في القرآن والسنة في حق الله وفي حق المخلوقين وذكر أصناف المحبوبين بصفاتهم وذكر الصفات التي لا يحبها الله وذكر الأصناف الذين لا يحبهم الله. فقال تعالى لنبيه ﷺ آمرا

---

[1] الفتوحات المكية ، 2 ، ص 334.

[2] الفتوحات المكية ، 2 ، ص 332.

[3] الفتوحات المكية ، 2 ، ص 328.

[4] Titus Burckhardt, *Introduction aux doctrines ésotériques de l'islam*, Paris, 1985, p. 43-44

أن يقول لنا ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ وقال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ وقال في ذكر الأصناف الذين يحبهم ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ ويحب المطهرين ويحب المتوكلين ويحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب المتصدقين ويحب المحسنين ويحب ﴿**الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ**﴾.[1]"

ومن الجدير بالذكر أن ابن عربي يؤكد على أن المحبة الإلهية هي السبب وراء خلق العالم ، وهي على حد قوله "أصل الوجود":

"والمحبة الواردة في القرآن كثيرة. وأما الأخبار فقوله ﷺ عن الله إنه قال: "كنت كنزا لم أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق وتعرفت إليهم فعرفوني." فما خُلقنا إلا له لا لنا لذلك قرن الجزاء بالأعمال فعملنا لنا لا له وعبادتنا له لا لنا. وليست العبادة نفس العمل فالأعمال الظاهرة في المخلوقين خلق له فهو العامل ويضاف إليه حسنها أدبا مع الله مع كونها كل من عند الله لأنه قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ ، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقال ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فدخلت أعمال العباد في ذلك. وقال رسول الله ﷺ: "إن الله يقول ما تقرب المتقربون بأحب إلي من أداء ما افترضته عليهم ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به" الحديث. ومن هذا التجلي قال من قال بالاتحاد وبقوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وبقوله ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾. وفي الخبر أن الله يحب كل مفتن تواب ، وفي الخبر "وجبت للمتحابين" في وفي الخبر "أحبوا الله لما أسدى إليكم من نعمه" وفي الخبر "إن الله جميل يحب الجمال" و"إن الله يحب أن يمدح" وقال ﷺ "حُبب إلي من دنياكم ثلاث" الحديث. والأخبار في هذا الباب كثيرة جدا. واعلم أن مقامها شريف وإنها أصل الوجود.[2]"

تكلمنا آنفا عن العلاقة بين المحبة واتباع الرسول ولكن لم نبين بدقة ما هي. فيما يلي بيان واضح للمسألة:

"قال تعالى لرسوله ، ﷺ" أن يقول " فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ". فاتباع الشارع واقتداء أثره صحت محبة الله للعبد وغفرت الذنوب وصحت السعادة الدائمة. فإن الائتمام بالإمام يلزم ما دام يسمى أماما ، وأمانة الرسول لا ترتفع ، الاتباع لازم. ومحبة الله لمن اتبعه لازم بلا شك. وإذا أحب الله عبدا كان [الله] جميع قواه وجوارحه ولا يتصرف [العبد] إلى بقواه وجوارحه. فلا يتصرف إلا بالله

[1] الفتوحات المكية ، 2 ، ص 322.

[2] الفتوحات المكية ، 2 ، ص 322. 323.

فيكون محفوظ التصرف في حركاته وسكناته. وكان سبب إقبال الحق على العبد إقبال العبد على الحق."[1]

ختاما ، سنترك الكلمة الأخيرة لابن عربي وشعره الملهَم ، حيث عبّر هذا المعلم العظيم عن الحكمة بشكل لا مثيل له وعن الحقائق الأكثر دقة عبر أبيات في غاية الجمال:

وَعنِ الحُبِّ صَدَرْنا * وَعَلى الحُبِّ جَبَلْنا

فَلِذا جِئْناهُ قَصْداً * وَلِهَذا قَدْ قَبِلْنا

[1]انظر "الرحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن" ، دمشق ، 1989 ، ج 1 ، ص 433.